سرد

منحوتة العشق

قصة قصيرة

علي حسين عبيد

في قرية (أم البط) تسكن عائلتي وعائلة زوجتي التي كانت تمتلك مزرعة صغيرة في تلك القرية، كانت أمي كلما احتجنا لشيء من المزرعة تأخذ كيسا متوسط الحجم، تلتقي زوجتي (قبل أن أتزوّج منها)،تسلّم عليها ويتجاذبان أطراف الحديث، وأكثره كان يدور عن شؤون النساء، وكانت أمي تصرّ على أن تسألها عن الفرق بين نساء الأمس ونساء اليوم.. فتجيبها الفتاة المنحوتة بجمال باهر:

– لا يوجد فرق كبير بينهما ولكن بنات اليوم يعرفن تفاصيل الحب والحياة والثقافة أكثر من نساء الأمس، وأصبحن أكثر نرجسية من عاشقات الأمس. وتضحك ملء فمها..... ثم تقول لأمي:متى ستزوجين ابنكِ؟ (تقصدني أنا). تجيبها أمي: – شباب اليوم ليس عليهم اعتماد، يفكرون بكل شيء إلا الزواج، ولكن ماذا تقصدين بنرجسية العاشقين؟

أقصد أن العاشق قد يحب نفسه أكثر من المعشوق فلا يعترف له بحبه إلا ما ندر.

– لماذا لا يعترف له إذا كان يحبه فعلا؟

– ليس من السهل على العاشق النرجسي أن يعلن مشاعره، فالنرجسية العالية تمنعه من البوح بعشقه للمعشوق، لهذا يصعب كثيرا أن يعترف للمعشوق بعشقه، ولكن من جهتي أرى أن الإنسان يجب أن يحب نفسه ويحترمها حتى يبدع وينجح، وفي هذه الحالة سيكون نرجسيا، وسوف يجد صعوبة كبيرة في البوح بعشقه، أما أنا شخصيا فقد تنبّهتُ لهذه المشكلة، لأنني نرجسية، ومع ذلك عالجتها بالحوار مع نفسي، وأقنعتُها بأن أتعامل مع المعشوق بطريقة عفوية صادقة أتفوق فيها على نرجسيتي وحبي لذاتي – فيما لو أنني عشقت–.

قهقهتْ قليلا وواصلت كلامها:

– إحدى صديقاتي لها رأي جميل حول هذا الموضوع، تقول فيه، إذا أحببتِ أحدا وتشعرين أنه يستحق حبك لا تخفين عنه ذلك، فالحياة أقصر بكثير من أن نخفي عشقنا. تضحك الفتاة المنحوتة الجميلة مرة أخرى وتقول لأمي من باب المزاح: – لو رأى ابنكِ رسوماتي سيقع في حبي. بعد أيام، نقلتْ لي أمي هذا الحوار الذي دار بينهما، فسألتُها: – هل كانت زكية جادة بكلامها؟ قالت أمي: – كانت عيونها مليئة بالإعجاب.

فسألتُ أمي: – بمن كان إعجابها؟ قالت: – بأبيك! ثم ضحكت عاليا وأضافت: – كأنك غشيم لا تعرف أنك أنت المقصود.

ظلت كلمات أمي تدور في ذهني، لقد كنت معجبا فعلا بعيون المنحوتة الفرعونية، عينان واسعتان سوداوان بياضهما ناصع، ترتسم فيهما شخصية زكية البارعة في ذكائها كما شاع عنها في قرية أم البط، أما الرموش فقد كانت طويلة بحيث ترتمي على وجنتيها وترتفع في تقوّس مشدود نحو حاجبيها، فتبدو مثل عيون امرأة بدويّة كحيلة، أو امرأة فرعونية تتشكل روحها وشخصيتها في عينيها، إن مجرد النظر إلى عينيها سوف يُبطِل الفكرة المتداولة عن أبناء الريف، بأنهم لا يهتمون بالثقافة والجمال، هذا تصوّر غير صحيح، فمعظم عباقرة الأدب والفن والسياسة خرجوا من أعماق القرى، مثلا صعيد مصر أعطانا أعظم المبدعين العرب، وريف العراق أنجب مبدعين تلهج بهم الذاكرة العربية إلى الآن، وأرياف أخرى في دول عربية كثيرة، ليس صحيحا أن نساء وأبناء الريف لا يتمتعون بحس جمالي وذكاء وتميّز كما يُشاع عنهم.. عندما سمعتُ من أمي عن رسومات زكية قلتُ لها: – في المرة القادمة أنا مَنْ سيجلب ما نحتاجه من مزرعة الجيران. ضحكت أمي وقالت:

– سأخبرُ أباك بالأمر حتى يطلبها لك قبل أن يخطفها غيرك. رجوتُ من أمي التريّث إلى أن أُخبرها أنا بذلك. في عصر اليوم نفسه، يتهادى أمام باصرتيّ، جسد أهيف، فتاة تضع على كتفها قربة ماء من المعدن، وتمضي بغنج عفوي صوب ضفة النهر لتجلب الماء، وحدها تتهادى بين ظلال الأشجار، تشد وسطها بحزام أسود مزركش، قدّها يتمايل كغصن رمان، وجهها دائري مشرق، ناصع البياض، أجلس على جانب الطريق، أو بالأصح أتخفى خلف شجرة توت كثيفة، أنتظر عودة زكية من النهر، أريد فقط أن أرى تقاطيع جسدها وهل يشبه روحها التي رأيتها مرسومة في عينيّ أمي، عادت زكية كأنها تمشي على ماء بحيرة ساكن، أصابع قدمها تمس وجه الأرض بلطف وحذر كأنها لا تريد أن تُثقل عليها، جسدها مُضاء بهالة من الهدوء والجمال الفرعوني القمحي، على الرغم من بياض بشرتها، في مرحلة سابقة فُتِنتُ بالملكة الفرعونية نفرتيتي، قرأتُ عنها أنها جوهرة النيل، وقد قيل أن هذه الملكة المصرية العريقة كانت تجسّد الجمال الخلاق إلى حد أن الجميع كان يعتقد بأنها آلهة، كنت أقرأ الروايات والكتب التي تصفها وتفصّل حياتها وأفعالها، شغلتني عيناها منذ زمن مبكّر من عمري، حلمتُ أن أعشق امرأة لها عينان فرعونيتان مثل عينيّ نفرتيتي وقد قرأتُ أن معناها "المرأة الجميلة التي أقبلت"، وها هي زكية تُقبل عليَّ، حاملة هاتين العينين المعطّرتين برائحة التاريخ، عندما وصلتْ قربي وأنا خلف شجرة التوت، تعمّقتُ في عينيها ومشّطتُ بتركيز تقاطيع وجهها، ارتجفتُ فجأة عندما حسمتُ أمري، إنني أعشقها وسوف نطلبها للزواج.

بعد ثلاثة أيام أفرغتُ كيس الخضار مما تبقى فيه، وحملتهُ وقصدتُ مزرعة الجيران، على الرغم من أن الكمية التي جلبتْها أمي لم تنفد بعد، عندما رأت أمي ذلك قالت بضحكة مشاكسة:– لسنا بحاجة الآن إلى شيء من المزرعة.

قبل دخولي المزرعة حاولتُ أن أعرف مَنْ المتواجد في داخلها، فإذا كان معها أبوها أو أمها لا فائدة من ذهابي لها، سياج المزرعة المستطيل يتكون من سعف النخيل المرصوف إلى بعضه بعض، تتخلله فراغات، نظرتُ من أحدها، فرأيتُها تسقي شجيرات الطماطم وسمعتُ صوتها الخفيض وهي تدندن بأغنية ريفية، ثم غيَّرتْها إلى أغنية عاطفية كان يلهج بها الشباب العاشقون، كانت زكية وحدها في المزرعة، أصابتني رجفة مفاجئة، واصلتُ سيري، دخلتُ المزرعة، من بعيد عندما رأتني زكية، تركت انشغالها بالسقي، ونهضت واقفة في مكانها، لم تتحرك نحوي، بدت صامتة، هذه أول مرة أدخلُ فيها مزرعة الجيران، تفصلني الآن أمتار قليلة عن زكية، تأكّدَ لي حدسي السابق، ها أنني أرى عينيّها الكحيلتين، بدأ ينطلق منها بريق مستقيم نحوي، كأنه سهم من رذاذ بارد، سلّمتُ عليها، فردّت كما لو أنني أحد أفراد أسرتها، ثم مدت يدها لتأخذ الكيس مني، قلتُ لها: أنا ليس في عجالة من أمري.

يوجد كوخ صغير في إحدى زوايا المزرعة معزول في ساحة مربّعة الشكل بدت كأنها حديقة منفصلة عن المزرعة، أرضها معافاة مزروعة بورود وأزهار بألوان أخّاذة، مضتْ زكيه نحو الكوخ، دخلتُهُ، بقيتُ أنا في الخارج، بعد دقائق خرجتْ وأومأت لي أنْ أدخل الكوخ وقالت: استرح قليلا، أنت لست بغريب. شعرتُ بالهدوء والتوازن ودخلتُ الكوخ، وجدته نظيفا مفروشا بصورة غير متوقعة، قمّة من قمم الجمال، تناسق ألوان الفراش، الوسادة الزرقاء الناعمة، وثمة بعض لوحات للرسم تتوزع الجدران، مناظر طبيعية، ووجوه (بورتريه) مشرقة، ومنحوتات صغيرة غاية في التعبير الجمالي، أعرف أن زكية ترسم الطيور، والعيون الفرعونية، ووجوه النساء البدويات كذلك، ولها مواهب عديدة، أبناء الريف موهوبون وليس كما يُشاع عنهم، بدتْ كأنها تعيش خارج عالم الريف بل خارج الزمن، وكانت ثمة مكتبة صغيرة في زاوية الكوخ القصية، نظرتُ إليها، فلفتَ انتباهي كتاب بغلاف ابيض، لاحظتُ عنوان الرواية التي طالما عشقتُ قراءتها، رواية إريك ماريا ريمارك (للحب وقت وللموت وقت)، فأيقنتُ على نحو لا يقبل الشك أنني بإزاء ذوق متميز.

مدّتْ يدها وأخذت الكيس وخرجتْ، قالت: لا تتعب نفسك، ابقَ مع الرسومات والكتب، سأعود لك سريعا.

لم أتحدّث لكم عن عطر الكوخ، عطر البرتقال الذي ملأ صدري فصار العالم كله بنكهة ساحرة، كيف يمكن لإمرة أن تصنع من مكان صغير (كوخ) بمزرعة في عمق الريف، مملكة للجمال بهذه الطريقة، أي ذوق هذا الذي يجمع الجمال بأنواعه الخارقة في كوخ لا يتجاوز ثلاثة أمتار طولا وعرضا وارتفاعا، عادت بالكيس يغصّ بالخضار، وقالت بصوتها الرخيم:ما رأيك ببيتي الصغير؟

– انه مملكة متكاملة وليس بيتا صغيرا.

– مملكة؟؟

– نعم مملكة من طراز خاص.. تشبه مملكة نفرتيتي.

– يا لها من ملكة، عيناها حضارتان، أو تجمع بين حضارتين، حضارة الفراعنة وحضارة الرافدين.

لم أفهم قصدها فيما قالته من كلام، فغيّرتُ مسار الحوار، سألتُها:

– ما رأيكِ بالرسم وما الأقرب إليك هو أم النحت؟

– بين الاثنين يوجد فارق أراه واسعا، الرسم يمنحك صورة تبحث فيها عن الروح، أما المنحوتة فتمنحك روح تبحثُ فيها عن الصورة.

– فعلا هو فارق كبير.

– ولأنني أحببت الرسم أولاً، تجدني متلهفة للبحث عن جمال الأرواح في الصور.

– وهل تجدين ما تبحثين عنه؟

– ليس دائما، لكنني أحثّ نفسي كي تكتشف الجمال المخبوء في أعماق الصور.

– ماذا تعني لك الصور؟

– الصور هي حياتنا نفسها، نحن لسنا أكثر من صور، فإذا كانت أرواحنا جميلة صارت صورنا جميلة أيضا.

– هذا يعني أن القبح ليس في الصور.

– بالضبط، القبح يكمن في الروح.. مثلما هي المكان الملائم للجمال.

أنا لا أفهم كثيرا في نقد الرسم أو النقد التشكيلي، ولكن عندي إطلاع على بعض المدارس الفنية، ولا أفهم كثيرا في النحت، مع أنني مغرم بدافنشي ومايكل أنجلو، فحاولتُ أن أغيّر مجرى الحوار.. قلتُ لها:

– أتعلمين أنتِ على شبه واضح من نفرتيتي، أو كأنك امرأة بدوية ذات سطوة.

تبسّمتْ بوضوح فازداد إشراقها، وقلتُ لنفسي "ها أنك تفوز بكنز من كنوز الحياة النادرة". ردّتْ هي على تساؤلي:

– أنا لستُ أكثر من صورة، ربما تسكنني روح نفرتيتي أو الحسناء البدوية، المعارف يقولون إنني ذكية.

– وجميلة أيضا، بل بالغة الجمال وموهوبة.

تبسّمتْ من جديد، ورأيتُ عينيها أجمل عندما تتبسّم.

– لا تطريني بالكلام، حاول أن تبحث عن وسيلة أخرى للإطراء.

من جديد لم أفهم قصدها، ورحتُ أفكر فيما تعنيه بالإطراء البديل، يبدو أنها فعلا تذهب إلى الأعماق في كل شيء، إنها امرأة من طراز النساء الفريدات، تُسحرها الخفايا، ولا تستمتع بالظاهر السهل، أو ما يتواجد في السطح، فهو منظور من الجميع، أما الأعماق فلا يصل إليها غير القادرين على الغوص بعُدّةٍ كاملة تقيهم الغرق، فيغوصون ويعودون إلى السطح محملين باللؤلؤ والمرجان، وبالجمال العميق.

سألتها:

– كيف أطريكِ بوسائل أخرى؟

– تكتب عني مثلا؟

– بالفعل أنا أفكر في ذلك.

– وماذا ستكتب؟

– عن الحب ومزرعة الجمال وملاحم الدم.

– ماذا تقصد بملاحم الدم؟

– الحروب التي أحرقت آمالنا وأضرمت النار في أحلامنا.

– ولكن أحلامنا غير قابلة للاحتراق.

نهضتُ من مكاني، خطوتُ إلى المكتبة، استعرتُ منها رواية (الأشجار واغتيال مرزوق) لعبد الرحمن منيف، وقلت لها:

– مثلما أنت تبحثين عن الأرواح في الصور، أنا أبحث عنها في الكتب، وخصوصا في الروايات، هذه الرواية لعبد الرحمن منيف قرأتها مرّتين ولم أكتشف أرواح شخصياتها بما يكفي، سأستعيرها منك.

– لك ما تشاء.. كرّر زيارتك، واعتبر هذه المزرعة ملكاً لك هي وما فيها. وتبسّمتْ.

شكرتُها وضحكتُ قليلا، وسألتها:

– المزرعة وما فيها فقط؟

فأجابت:

– الجار مثل النفس، له ما يشاء وما يطلب.

بعد شهور من زيارتي لها في المزرعة، انتقلنا من قرية (أم البط)، إلى مركز المدينة، ومعنا المنحوتة الفرعونية التي أصبحت الآن زوجتي رسميا.

متابعات

نادي الكتاب يحتفي بكتاب الناقد علي حسين يوسف

احتفى نادي الكتاب بصدور كتاب (مبادئ البنيويّة من النشأة إلى التمثل العربيّ) للناقد الدكتور علي حسين يوسف على حدائق نقابة المعلمين في كربلاء عبر أمسية أدارها الناقد الدكتور عمار الياسري وحضرها جمهور الأدب والثقافة في المدينة. قدم مدير الجلسة قراءة عن محتوى الكتاب وأهم ما جاء فيه من فصول ومضامين، ثم ابتدأ المحتفى به بتقديم لمحة عن البنيويّة، مشيراً إلى أنّها تبلورت بوصفها فلسفة لفهم العالم واتجاها نقدياً من آراء سوسير ومقولات الشكلانيين وأطروحة النقد الجديد، وجهود آخرين أمثال ياكبسون وشتراوس. وأضاف أن: البنيوية تنظر إلى الوجود على أنه بنى مغلقة يفترض أن يفسّر بوصفه مجموعة علاقات داخلية لها أنظمتها الخاصة ولا علاقة للخارج بها، لذلك فإنّها في مجال الأدب لم تتعرض لعلاقة الأدب بالحياة، فالنقد عند البنيويين يختص بالأدب بوصفه علما يحاول اختبار لغة الكتابة ومدى تماسكها المنطقي فحسب، مما جعلها تصطدم بالتيارات الأيديولوجية التي تحاول ربط الأدب بالإنسان أو المجتمع، أو ربطه بالتاريخ إذ إن البنيوية تجاهلت التاريخ تجاهلا تاماً حين عزلت الأعمال الأدبية عن مؤلفيها ورفعت شعار موت المؤلف، فالمؤلف بحسب تعبير بارت ما زال (يتضاءل حتى لكأنه تمثال صغير وضع في الطرف النائي للمشهد الأدبي). ثم قال يوسف وهو يتحدث عن ميزات البنيوية موضحاً: أهم ما يميز البنيوية سعيها إلى علمنة الأدب لذلك احتفت بالصرامة العلمية والمعادلات الرياضية، والرسوم والبيانات من هنا اتهمت بأنها أهملت المعنى واتسمت بالغموض والإبهام. والحقيقة فإنّ البنيوية صورة مطورة للنقد الجديد، فكلاهما قد اتفقا على رفض الاتصال بين داخل النص (بنيته اللغوية) والخارج (المجتمع)، وأغفلا رصد العلاقات بين الأدب وثقافة المجتمع، وذهبت البنيوية في هذا الاتجاه إلى أكثر من ذلك فأغفلت نوايا القارئ والكاتب بل عدتها لا قيمة لها، وهي حينما تجاهلت المعنى فقد ركزت على وظيفة الدوال، ونظرت إلى الإنسان والتاريخ نظرة سكونية، ومن هنا اتهمت بالعجز عن تحقيق المعنى وإنارة النصوص الأدبية أو تفسيرها لذلك وصفها روجيه غارودي (ت ٢٠١٢ م) بأنّها فلسفة موت الإنسان ورفض فوكو أن يكون بنيويا من المنطلق نفسه.

كما تحدث عن محاولة البنيوية التكوينية عند غولدمان التخفيف من إسراف البنيوية الشكلانية في عزل النص عن العالم الخارجي، وذلك بتمسكها بمفهوم (رؤيا العالم) الذي يعني أن الشيء المهم ليس نوايا المؤلف بل الدلالة الموضوعية التي يحققها المنتج عن نوايا مبدعة.

البنيوية، على وفق يوسف، منهج تحليلي وصفي يأخذ على عاتقه الكشف عن العلاقات والروابط بين أجزاء بنية ما وتحولاتها، إذ إن تلك العلاقات والروابط الداخلية في نظر البنيوية تعد الوسيلة المفضلة للكشف عن أسرار البنية، لذلك فإن جان بياجيه حينما يعرف البنيوية يؤكد ذلك فيقول: (إن البنية نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا في مقابل الخصائص المميزة للعناصر، علما بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحولات نفسها. وبعد أن أنهى المحتفى به حديثه عن كتابه وموضوعة البنيوية ابتدأت المداخلات التي تحدث أصحابها عن جوانب متعددة من الكتاب وأثاروا عددا من الأسئلة المهمة حول آراء الناقد والبنيوية بوصفها رؤية وفلسفة ومنظورا تحليليا للنص وللحياة أيضا وأسهم بتقديم تلك المداخلات، كلّ من الأديب علي لفتة سعيد كاتب السطور والباحث خليل الشافعي والباحث نصير شنشول والقاص سلام القريني والقاص حمودي الكناني.

شعر

ميثم عبد الجبار

نصان

ـ سيسهرون الليلة
يرتلون القرآن
يتسامرون متبصرين في أحديث النبيّ
سينامون قليلاً
ثم يستأنفون القيام لصلاةِ الليل
والفجر، ثم الضحى.
والضحى والليل اذا سجى
ما ودعكَ ربُكَ وما قلى
وللآخرة خير لكَ من الأولى.!!
سيسهرون، فيما أنت منطفئٌ تركناكَ هناك
سيسهرون، ويسهر أولادك أيضا
سينامون مطلع الفجر لشدّة التسبيح
بينما تنام عيالك مطلعه لشدّة الجزع
يسهرون وينامون فيما أنت هناك
وما الضحى... فستنسى
ثم ننسى.وقتها سيمضي الله إلى شغله
الأنبياء إلى الترتيل
الكتبة إلى التدوين
القتلة المهرة إلى العمل
العيال إلى الزمن
وأنت..... أنت إلى الغياب.
ـ أنا الذي لا يقول لكِ ماذا
تفعلين،أو لا تفعلين
أنا هذا الواحدُ الذي يحدّقُ بكِ طويلاً،
ثم يتركك ناسياً ويمشي
أنا الآخرُ الذي لا تراه العيون

غالباً تدوسين ظلّه دون انتباهة منكِ
الغائبُ في الزمنِ والمكان والمقاعد
أنا اللامرئيُ الزجاجيُ
المطلُ على عتمةِ من لا يعرفوني
أناقلبكِ المجروح،يدكِ الباردة،
دمعتكِ الساكنة،
وصمتكِ الذي تحوّل إلى فراشة،ثم إلى رماد.
أنا الرمادُ الذي نفخ بُعدكِ فيه
فطار، أو تلاشى وصار نسيّاً منسيّاً
أنا النسيانُ الذي مرّ على كل عاشقٍ
وصار أغان شائعة عن البُعدِ
أنا البعدُ يا أيها الملاكُ القريب
من عرشِ الغيب
البعيدُ عن عينيّ الصابرتين
المُعلقتين في أثر الانتظار
أنالستُ انتظاراً،
أنا الكلماتُ والأشياءُ والاسماءُ المُبهمةُ
أنا هذا الواحدُ الذي حدّقَ بكِ طويلاً،
ثم ناسياً راح يمشي.